القضاء العادل في الاسلام

ان القضاء اهم منصب في الشريعة الاسلامية به تصان الحقوق، وبعدالته تتقى المظالم وينتفي العقوق، والشخص الذي يتربع على منصة احكامه الرفيعة تجري اوامره على الخصوص والعموم من اكبر شخصية الى اصغرها في الهيئة الاجتماعية الاسلامية ، اذ هو الممثل للشريعة المطهرة والمنفذ لاحكامها العادلة المستقيمة التي لا ياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها و كل مسلم يدين بقول لاالاه الا الله محمد رسول الله يطأطئ الرأس اجلالا واعظاما امام سدة القاضي ، ويعتبر احكامه احكاما امر بها الدين وقضى بها الحق واليقين .

ودستور الشريعة الذي يتمشى على قواعده الواضحة القضاة ويستضيئون بنبراسه المنير دونه الفقهاء الاجلة رحمهم الله على اساس الكتاب والسنة فاوضحوا المحجة ايضاحا لايقبل موارية ولا ابهاما اذ حرروا المسائل واجلوا الغوامض وبينوا الدقائق ، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة الا احصوها جازاهم الله وشكر سعيهم .

فان كان القاضي عادلا يخاف الله ويقف عند حدود الشريعة المطهرة يأتمر باوامرها ويتجنب نواهيها ، اسعدت به البلاد والعباد وكانت عدالته كالغيث النافع الذي يبل اوام الارض فتخرج كنوزها فيعم الرخاء وينتفي العناء وان كان بضد ذالك فهي الطامة الكبرى والبلاء المحيق الذي يدمر الحرث والنسل .

ولخطورة هذا المنصب الجليل ومكانته العظيمة كان الخلفاء والسلاطين من الصدر الاول الى هاته المدة الاخيرة يختارون الرجال الاكفاء علما وعملا وزهدا وورعا الذين لايغترون بحطام هاته الدنيا الفانية ، ولا يخافون في الحق لومة لائم ، يقضون بالعدل حتى على من ولاهم ان اشتكى ظلامته اليهم به احد ، وكان علماء السلف الصالح رحمهم الله يتورعون عن تولي هاته الخطة ، ويستنكفون ما امكنهم من ولوج ابوابها خوفا وفزعا من عظيم مسئوليتها امام الديان العادل الذي يجزي كلا على قدر عمله يوم البعث والنشور لقوله صلى الله عليه وسلم ، القضاة ثلاثة ، قاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، او كما قال حتى ان منهم من امتحن وسيم انواع العذاب ارغاما له على توليها وضل على امتناعه الى النهاية ، والان ترى منهم من يقرع كل باب تملقا واستعطافا رغبة في توليها قصد الانتفاع منها ماديا والامر لله من قبل ومن بعد، فهو سبحانه مصرف الامور كيف يشاء .

الشريف سيدي محمد بن يحيى الصقلي

ولقد كنت منذ مدة افكر في كتب مقال يلم بهذا الموضوع الهام الماما شافيا من جميع مناحيه ، وبعد ان ابتدأت بتحريره وصلتني كتب من مصر من جملتها سنة من مجلة نور الاسلام الغراء ، التي تصدرها لجنة من علماء الازهر الشريف اخذت بتصفحها ومن محاسن الصدف اني وجدت اول مقال افتتاحي بها يلم بالمسالة نفسها الماما ليس بعده مزيد لمستزيد ، اردت ان اكتفي بنقله وتذييل كلماتي هذه به اذ لايدرك الضالع شأو الضليع وهو بقلم الاستاذ الجليل الشيخ محمد الخضر بن الحسين وهاهو بنصه وفصه .

احاط الاسلام بضروب السعادة هداية وتعليما فدل على كل ضرب منها دلالة تقوم بها الحجة وتقطع عن الناس عذر الجهل به ، وله في هدايته درجات، فقد يرشد الى الشيء دون ان يلهج به او يلحق

في الترغيب فيه حيث يكون سهل المأخذ على النفس او يكون في طبيعة البشر مايسوق اليه كاحسان الوالد لولده والسعي في الارض لابتغاء الرزق.

وقد يكون في الامر ثقل على النفس وصرف لها عن بعض شهواتها فلا تكاد تقبل عليه الا بعزم صميم ونظر في العواقب بعيد كاقامة الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وهذا ما يامر به المرة بعد الاخرى ويسلك في الدعوة اليه اساليب شتى حتى ياخذ اليه النفوس على تفاوت هممها واختلاف رغائبها وكذالك ترى مسلكه في الدعوة الى العدل في القضاء.

يتقدم الخصمان الى القاضي وكثيرا ما يجد في نفسه ميلا ـ شديدا او ضعيفا ـ الى احدهما يميل اليه لنحو صداقة او قرابة او وجاهة او غنى او يميل اليه لانه فقير او ضعيف او خصم لمن يناوئه، وقلما استطاع القاضي في هذه الاحوال ان يضع الخصمين من نفسه في درجة واحدة الى ان يفصل في القضية بما اراه الله من الحق، تلك العواطف التي تثور في القاضي حال النظر في القضية هي في حكم المعفو عنه الا ان يكون لها في رجحان احد الخصمين على الاخر اثر غير ما تقتضيه البينة واصول الحكم.

شأن تلك العواطف ان تجاذب القاضي وتناجيه ان ينحو بالحكم نحو منفعة المعطوف عليه وعلى قدر العطف تكون هذه المجاذبة والمناجاة ومتى قويتا في نفس لاتخاف مقام ربها ولم تكن على بصيرة مما في لباس العدل من زينة وفخار نبذت الحق وراء ظهرها وانحدرت مع عاطفتها الى هاوية الظلم وما هاوية الظلم الا حفرة من النار.

هذه العواطف التي تجاذب القاضي وتناجيه ان يرضي خصما بعينه تجعل العدل في القضاء من قبيل ما يثقل على النفس ويجمح عنه الطبع فكان من حكمة الدعوة الاسلامية ان تعتني به عناية ضافية وتدخل الى الترغيب فيه من ابواب متعددة.

عنيت الشريعة بالعدل في القضاء عنايتها بكل ما هو دعامة اسعادة الحياة، فأتت فيه بالعظات البالغات، تبشر من اقامه بعلو المنزلة وحسن العاقبة وتنذر من انحرف عنه بسوء المنقلب وعذاب الهون.

فمن الايات المنبهة لما في العدل من فضل وكرامة قوله تعالى وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين، فقد امر بالعدل ونبه على ان خيرا عظيما ينال الحاكم بالقسط هو محبة الله له، وما بعد محبة الله تعالى الا الحياة الطيبة في الدنيا والعيشة الراضية في الاخرى.

ومن الاحاديث الدالة على مايورثه العدل من شرف المنزلة عند الله تعالى قوله صلى الله عليه وسلم، ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم واهليهم وماولوا ـ وهذا كناية عن شدة قربهم من رب العالمين وفوزهم برضوانه، وفي ذكر الرحمن تربية للرجاء والثقة بان الحاكم العادل يجد من النعيم ما تشتهيه نفسه وتلذه عينه شأن من يكون قريب المنزلة من ذي رحمة وسعت كل شيء.

وان شئت مثلا من ءايات الوعيد فانظر في قوله تعالى: ياداوود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب اليم بما نسوا يوم الحساب. تجد الاية تنادي بان الفصل في القضايا جريا مع الاهواء ضلال عن سبيل الله. والضلال عن سبيل الله ملق في شديد من العذاب، ومن ذا الذي يستخف بعذاب وصفه الكبير المتعال بالشدة ويشتريه بمتاع من هذه الحبة الا من سفه نفسه ولم ينفذ الايمان الى سويداء قلبه.

فلهذه الاية اثر بليغ في النفوس المطمئنة بالايمان، كان احمد ابن سهل جارا لقاضي مصر بكار بن قتيبة فحدث انه مر على بيت بكار في اول الليل فسمعه يقرأ هذه الاية قال ثم فت في السحر، فسمعته يقرؤها ويرددها فلا عجب ان يكون بكار هذا من اعدل القضاة حكما واشرفهم امام اولي الامر موقفا.

ومن الاحاديث الواردة في الوعيد على الجور في القضاء قوله صلى الله عليه وسلم من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين، ففي هذا الحديث تمثيل القاضي اذ يلاقي جزاءه في الاخرة باشد الناس عذابا في هذه الحياة وهو المذبوح بغير سكين، وهذا من يكون حظه من علم القضاء بخسا او يكون خلق العفاف في نفسه واهيا.

ويصح حمل الحديث على معنى الاشارة الى صعوبة القضاء حتى كان القاضي من اجل ما يلاقيه في تعرف الحق وتنفيذه من مكاره ومجاهدة للاهواء مذبوح بغير سكين وهو بعد هذا مشعر بسمو منزلة القضاء إن كان القاضي العادل يضاهي القتيل في سبيل الله بما انقطع عنه من شهوات وقاساه من آلام يبتغي اجر الله والله عنده اجر عظيم.

(يتبع) محمد بن يحيى الصقلي